

المرجعيات السيميوطيقية والإبستمولوجية والأيدولوجية لمفهوم الدولة الفاشلة

■ مجدي الجزيري

ما أكثر المصطلحات التي حفل بها الفكر السياسي، وأثارت حولها من الإشكالات ما جعلها محوراً للعديد من الدراسات! ولعلّ من أهمها ما يميّز بين الدول بحسب مؤشرات ومعايير ترفع مكانة بعضها وتهوي بمكانة بعضها الآخر، ومنها على سبيل المثال دول الشمال ودول الجنوب، دول الغرب ودول الشرق، دول قوية ودول ضعيفة، دول غنية ودول فقيرة، دول متقدمة ودول متخلفة، دول كبرى ودول صغرى، دول لها حق الوصاية والحماية والهيمنة ودول أخرى ليس لها إلا أن تكون تابعة، دول ناجحة ودول فاشلة... تصنيفات ربما تضمّنت جانباً من الحقيقة؛ لكنها لم تتضمّن الحقيقة كلها، ولم تتضمن - وهو الأهم - بواعث نشأتها، ومن له الحقّ في صياغتها، وما يستهدفه منها من أهداف سياسية ومصالح اقتصادية، فإذا كان لا بدّ من التمييز والتصنيف؛ فإنه ينبغي أن يكون منزهاً عن الهوى، وأن يكون في مصلحة الجميع، ويستهدف الخير لكل الدول، وليس في مصلحة طرف على حساب الطرف الآخر، كما لا ينبغي أن يكون من شرّع التصنيف صاحب الحقّ المطلق في

■ أستاذ الفلسفة المعاصرة وفلسفة التاريخ والحضارة، مصر.



تطبيقه وتوظيفه واستثماره في خدمة مصالحه وحدها، ولو تأملنا هذه المصطلحات لوجدناها تتفق في مجملها مع التفرقة بين نوعين من الدول، دول على درجة عالية في سلّم القيم، ودول أخرى على درجة متدنية منه، وهكذا نجد التفرقة بين الدول الناجحة والدول الفاشلة تأتي بمثابة حلقة في سلسلة التمييز بين الدول، ومتى أردنا تحليل ومناقشة مفهوم الدول الفاشلة، فلا يكفي تقديم دراسة وصفية تكتفي بتحديد نشأته وتناول المؤشرات التي بناءً عليها يمكن نعت الدولة بالفشل؛ بل علينا أن نتناوله من خلال نظرة علمية موضوعية، لا تكتفي بما شاع عنه في أدبيات الفكر السياسي؛ وإنما تتعامل معه من خلال علاقته بأطر مرجعية عن طريقها يكتسب دلالاته الحقيقية، فالعلاقات هي وحدها مصدر المعنى، وهي التي تؤلف الموضوعات الحقيقية للعلم، فكل موضوع للمعرفة عبارة عن كلٍّ يتألف من عدد من الأجزاء، وكل شذرة من المعرفة تنتهي بالتبلور في نسق من المعرفة؛ ومن ثم فالدولة الفاشلة ليست مجرد مصطلح في أدبيات الفكر السياسي؛ بل هي في حقيقة الأمر تعبّر عن ظاهرة بدت مستحدثة؛ لكنها متجذّرة في الوعي الغربي إلى حد كبير، وهي تمثّل - في جوهرها توجّهاً عاماً للثقافة الغربية تجاه الثقافات الأخرى المختلفة عنها والمغايرة لها، ومن هنا فإنه يمكن أن نتفهم علاقة مصطلح الدول الفاشلة في مقابل الدول الناجحة، في ضوء علاقة الغرب بالشرق، وعلاقة دول الشمال بدول الجنوب، وعلاقة الدول المتقدمة بالدول المتخلفة... نحن في حقيقة الأمر أمام مصطلح جديد؛ لكنه قديم في معناه ودلالاته.

ويمكن القول بأن مصطلح الدول الفاشلة نشأ منذ بداية الثمانينات وأوائل التسعينيات، في خطاب مندوبة أمريكا في الأمم المتحدة لحشد الجهود الدولية لمساعدة الصومال، واستخدم على يد جيرالد هلمان Gerald B. Helman وستيفن راتنر Steven R. Ratner في دراسة لهما عام 1993 في مجلة السياسة الخارجية Foreign Policy، ثم في دراسة أخرى لوليام زارتمان William Zartman، وكانت أمريكا أول من اهتم بهذا المصطلح أكاديمياً ثم سياسياً وأمنياً وتنموياً، وتنوعت الآراء في تحديد مفهوم الدول الفاشلة. فقد أشار كلٌّ من راتنر وهليمان إلى أن الدول الفاشلة هي التي لا تستطيع أن تلعب

دوراً ككيان مستقل، أما زارتمان فقد تناولها بوصفها الدول التي لم تعد قادرة على القيام بوظائفها. ومنذ 2005 اهتم صندوق السلام Fund for Peace بإعداد تقارير سنوية بالاشتراك مع مجلة السياسة الخارجية خاصة بالدول الفاشلة؛ بمقتضاها يتم ترتيبها وفقاً لمؤشرات اقتصادية واجتماعية وسياسية وأمنية¹ وأياً كانت التقارير السنوية عن الدول الفاشلة، واهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة بمتابعة التقارير عنها؛ فإننا نتحرك في دائرة التمييز بين الدول وفقاً لمؤشرات ومصالح الدول الكبرى بالدرجة الأولى، وهنا نتساءل عن طبيعة العلاقات الدولية: أي علاقات تقوم على الندية والاحترام

يمكن القول بأن مصطلح الدول الفاشلة نشأ منذ بداية الثمانينات وأوائل التسعينيات، في خطاب مندوبة أمريكا في الأمم المتحدة لحشد الجهود الدولية لمساعدة الصومال، واستخدم على يد جيرالد هلمان وستيفن راتنر.

المتبادل بينها؟ أم أنها تنطلق من الإقرار بالتفاوت والتباين بل والصدام بينها إذا لزم الأمر؟ لا شك أننا لو احتكنا إلى الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13] لأدركنا قيمة التعارف والتواصل والتفاهم والاحترام والمودة بين الشعوب والأمم والدول، لو أراد الله سبحانه وتعالى لخلقنا شعباً واحداً، وأمة واحدة، ودولة واحدة، وعقيدة دينية واحدة، وثقافة واحدة، وهوية واحدة؛ لكن حكمة الله جلّ شأنه تجلت في تعدد وتنوع الجنس البشري. الله

وحده هو الواحد الأحد، وما عداه يدور في نطاق التعدد والتنوع والتباين، وما دما كذلك، فلا يعقل أن يتخذ الصدام والعنف والصراع طريقه إلينا، فالحقيقة التي تفرض وجودها علينا هي أنه لا وجود لنا من دون الآخر، المختلف عنا، ولا ينبغي أن نعاديهِ أو نحاربه أو نصطدم به لأنه مختلف عنا، والآخر بدوره يحتاج إلينا ويستمد وجوده من علاقته بنا، ومن ثم فالتكامل بيننا وبينه لا حيلة لنا ولا حيلة له أمامه. وإذا كان الأمر كذلك، لماذا استقر في أذهان بعض الناس أن حركة التاريخ لا يمكن أن تتحرّر من فكرة الصدام

1 - نسيم خوري: مفهوم الدولة الفاشلة، صحيفة رأي اليوم، 2018. انظر أيضاً مؤشرات الدولة الفاشلة بالموسوعة السياسية Political Encyclopedia.

الحمي بين الأنا والآخر؛ إنها السياسة بتدخلاتها ومنطق مصالحها جعلت الأنا في ناحية والآخر في ناحية أخرى، وافترضت القطيعة والصدام بينهما، إنها الأيديولوجيات المتصارعة والمتاحرة، الآية الكريمة تدفعنا إلى السلام والمحبة والاحترام المتبادل، لكن الواقع الإنساني - بغلبة المصالح السياسية - يدفعنا إلى تكريس الفرقة والتنازع والصدام؛ بل ويعمل على صكِّ ونحْت ألفاظٍ جديدة تخدم مصالحه، تبدو جديدة؛ لكنها قديمة في مغزاها ومعناها، ومن هنا جاءت تصنيفات الدول التي بمقتضاها أصبح لبعضها حق الوصاية والحماية والهيمنة على بعضها الآخر، ولم يتوقف الأمر على جانب ابتداء لغة لمواجهة توجهات ومنطلقات سياسة الهيمنة والتسلط؛ بل نجد محاولات جادة لتأسيس نظم معرفية جديدة، لم تنبثق ابتغاء تنمية وإثراء المعرفة الإنسانية بقدر انبثاقها لتصبح سلطة للقمع، وتكريس السيادة والهيمنة من قبل الدول التي دعمتها لتخفي من خلالها الأيديولوجيا المتحكمة فيها، وانطلاقاً من هذه النظرة يمكن تناول مفهوم الدول الفاشلة من خلال عدة محاور تتشابه معه، ومن خلالها يكتسب دلالاته ومعناه، وهي على النحو التالي: المحور السيميوطيقي، المحور الإستمولوجي، المحور الأيديولوجي.

أولاً: المحور السيميوطيقي:

لعلّ من أبرز توجّهات الفكر الفلسفي المعاصر اهتمامه بالسيميوطيقا والرموز Semiotics، وهو العلم الذي يدرس المشكلات العامة للإشارات والدلالات والمعاني، كإطار عام تُدرس من خلاله اللغة، ومن هنا اتجه بعضهم إلى التعامل مع اللغة كجزء من السيميوطيقا، أو النظرية العامة للعلامات، ولم يكتف بعضهم الآخر بعلاقة اللغة بالسيميوطيقا، بل أكد أيضاً علاقتها بأنساق أخرى كالمناطق وعلم النفس والفلسفة بفروعها ومنها فلسفة التاريخ وفلسفة السياسة.

ولعلّ من أهم ما لفت السيميوطيقا إليه قضية الوساطة بالنسبة للعلوم الإنسانية، فبينما تتعامل العلوم الطبيعية مع مادة موجودة في الطبيعة؛ تتعامل العلوم الإنسانية مع مادة يبدعها الإنسان وهي الرموز، وهي مجرد وسائل تعبير

عن أشياء غير مادية موضوعها الذهن البشري²، فنحن لا نواجه الواقع مباشرة؛ بل نواجه الواقع أو نقرأ الواقع من خلال العلم؛ ومن ثم يصبح الواقع قوانين ومعادلات رياضية، نواجهه ونقرأه من خلال الفن، بذلك يتحول الواقع إلى لوحات فنية وقصائد شعرية وأعمال روائية، نواجه الواقع ونقرأه من خلال الخطاب الديني السائد، ومن ثم يوحد البعض بينه وبين صحيح الدين، ونقرأ الواقع من خلال اللغة، وبذلك يتحول الواقع إلى عبارات وجمل وكلمات... ومن ثم يمكن القول بأن العالم الذي نحيا فيه ونتواصل عن طريقه هو العالم الرمزي، ومتى تلاعب بعضهم بهذا العالم، أو بعبارة أخرى: متى فرّض علينا

واختلق رموزاً ومصطلحات، يريد تجذيرها في عالمنا وتشكيل وعينا من خلالها على نحو يحقق غاياته؛ أمكن القول بخطورة الرمز اللغوي في حياتنا، فاللغة مراوغة بطبيعتها، ويمكن أن تخدعنا، وصدق فرانسيس بيكون عندما نادى بضرورة تحرير العقل وتنقيته من التصورات السابقة والآراء المتجذرة وجملة الصور والأوهام التي استبدت به، ومنها ما يتعلّق بتحكم اللغة في تصوراتنا للأشياء، فقد توجد ألفاظ لأشياء غير موجودة أو تكون الألفاظ غامضة ومتناقضة

لعلّ من أبرز توجّهات الفكر الفلسفي المعاصر اهتمامه بالسيميوطيقا والرموز Semiotics، وهو العلم الذي يدرس المشكلات العامة للإشارات والدلالات والمعاني، كإطار عام تُدرس من خلاله اللغة.

وملتبسة³، ولعلّ هذا يفسر طابع القداسة التي كانت تحمله بعض الألفاظ في المجتمعات البدائية، فلم تكن اللغة في المجتمع البدائي الأسطوري مجرد أداة للوصف أو التصوير؛ بل كانت متضمنة للموضوع ذاته وقواه الخفية، تملك وجوداً حقيقياً وقدرة على التأثير، وصدق فتغنشتين في تناوله لألعاب اللغة، فلم تعد اللغة عنده تقال بغرض تصور العالم فحسب؛ بل كانت تقال لأغراض أخرى، بعضها يصف، وبعضها يؤكّد، وبعضها يقرّر، وبعضها يأمر⁴.

2 - سيزا قاسم، نصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا، دار الياس العصرية، ص 43.

3 - Bacon, F. The New Organon Book Aphorisms from F. Bacon. A selection of his Works. p.331

4 - Pears, David, Wittgenstein Fontanamodern Mastets 1971. pp.171-172.



وربما كانت ملاحظة كاسيرر لها من الدلالة والمغزى ما يدعم هذه الفرضية، فالأساطير السياسية الحديثة - كما لاحظ - نجحت كلَّ النجاح في توظيف المفهوم السحري للكلمة في خدمة مصالحها، ومن ثم أصبح للمفهوم السحري للكلمة موقعُ الصدارة على المفهوم الدلالي، وفي هذا الصدد أشار إلى أن المؤلفات التي صدرت في العشر سنوات السابقة على صدور كتابه «أسطورة الدولة» - الذي صدر عام 1946 - تضمنتْ كلماتٍ جديدةً يعجز عن فهمها من يعرف الألمانية، بمقتضاها صُكَّتْ كلماتٌ جديدة، واستخدمت الكلمات القديمة للدلالة على معانٍ جديدة، ومثل هذه الكلمات بعد أن كانت تستخدم في أغراض دلالية ووضعية ومنطقية، أصبح لها دور سحري في تحريك انفعالات الجماهير، فلم تعد قضية المعنى محور استعمال الكلمة؛ بل أصبحت المهمة السحرية لها في تحريك المشاعر هي مصدر الاهتمام، وفي هذا المجال استشهد بكتيب صغير بعنوان (مرشد لاستعمال اللغة الألمانية). في هذا الكتاب تم تصنيف كل المصطلحات الجديدة التي ابتكرت في ظل النظام النازي، ولقد تبين له أن كلمات قليلة من اللغة الألمانية هي التي نجت من سيطرة النظام النازي على معانيها، وحاول المؤلفون للكتاب ترجمة المصطلحات الجديدة إلى الإنجليزية لكنهم أخفقوا، فلم تكن المصطلحات تتميز بمضمونها أو معناها الموضوعي بقدر تميزها بالجوانب الانفعالي الذي يغمرها ويحيط بها، وعلى سبيل المثال وجد كاسيرر أن اللغة الألمانية تفرق تفرقة حادة بين كلمتي siegfried، siegfiede، والكلمتان تتشابهان في نغمتهما إلى الدرجة التي يصعب على الأذن الألمانية أن تدرس هذا الاختلاف، ويبدو أن الكلمتين تدلان على المعنى نفسه؛ فكلمة seig تعني النصر، وكلمة Fried تعني السلام، ومع هذا فإن الاستعمال الألماني الحديث يحدّد الفروق الجوهرية بينهما؛ فكلمة siegfried تعني السلام الذي يتحقق عند انتصار ألمانيا، أما كلمة siegfried فتعني السلام الذي يمليه الحلفاء⁵، لا غرو بعد هذا أن وجدنا نعوم تشومسكي ينتقد السياسة الأمريكية التي تتلاعب بألفاظ اللغة؛ فهي تسمى الاحتلال حماية والهيمنة انتداباً⁶، وهنا

Cassierer. E. The Myth of the State, New Haven Yaleu. pp.282-283.

- 5

- 6 نعوم تشومسكي: اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة حمزه بن قبان المزيني، الدار البيضاء 1990.

يأتي مصطلح الدول الفاشلة، ونتساءل بدورنا إلى أي حد عبّر هذا المصطلح - الجديد في لفظه القديم في معناه - عن أهداف سياسية مضمرة، ونيات خفية تستهدف حق السيادة على الدول المسماة الدول الفاشلة، فطالما أنها تعدّ دولاً فاشلة، فإنها تصبح أقرب إلى العدم منها إلى الوجود، ومن ثم تصبح مؤهلة لتدخل الدول العظمى لتأخذ بيدها وتتصرف فيها على هواها، ومتى اتفقنا على أن الدولة منظومة متكاملة من الشعب والأرض والنظام السياسي، فهل نتّجه بحكمنا على فشل الدولة، إلى النظام السياسي وهو عنصر واحد من عناصر

طالما أننا نحكم على الدولة بالفشل؛ فإن حكمنا هذا يسرى على جميع العناصر، ومن ثم نحكم على الشعب بالفشل، وهل هذا يعقل؟! اللهم إلا إذا قصدنا إحلال شعب آخر محله أو إعادة تأهيله، وليس من العقل والمنطق أن نحكم على الأرض بالفشل؛ اللهم إلا إذا جاز لنا أنسنه المكان بمساحته الجغرافية، بطبيعة الحال يمكن الحكم على الحكومة بالفشل؛ لكن هل الحكومة هي الدولة؟ كيف غاب عن أصحاب مصطلح الدول الفاشلة مثل هذه الاعتراضات؟!

الدولة نقوم بفصله تعسفياً من العنصرين الآخرين وهما الشعب والأرض؟! فطالما أننا نحكم على الدولة بالفشل؛ فإن حكمنا هذا يسرى على جميع العناصر، ومن ثم نحكم على الشعب بالفشل، وهل هذا يعقل؟! اللهم إلا إذا قصدنا إحلال شعب آخر محله أو إعادة تأهيله، وليس من العقل والمنطق أن نحكم على الأرض بالفشل؛ اللهم إلا إذا جاز لنا أنسنه المكان بمساحته الجغرافية، بطبيعة الحال يمكن الحكم على الحكومة بالفشل؛ لكن هل الحكومة هي الدولة؟ كيف غاب عن أصحاب مصطلح الدول الفاشلة مثل هذه الاعتراضات؟!

لا اعتقد أنها كانت غائبة عنهم؛ بل إنهم قصدوا صكّ مصطلح غامض، وحاولوا تكريسه لممارسة فعالية المصطلح - بل قواه السحرية - في تأكيد مشروعية التدخل في شؤون ما يسمى في نظرهم الدول الفاشلة.

المحور الثاني: سلطة أنظمة المعرفة:

لا أعتقد بأن المعرفة يمكن أن تكون مصدراً للقلق والرفض والتشكيك، وإن كان هذا لا يمنع من نقد المعرفة، نحن جميعاً ننشد المعرفة ونقدّرها، ونعمل على تميمتها وتطور آفاقها، أيّاً كانت مجالاتها، وفي المجال السياسي - على سبيل المثال - كلما تعمقنا في مجالاته وقضاياها المختلفة؛ أصبحنا أكثر

وعياً بمشكلات عالمنا المعاصر؛ لكن يظل التساؤل: هل يمكن أن تنحرف المعرفة عن مسارها، وبدلاً من تصبح في خير الجميع، تصبح أداة يحقق بعضهم من خلالها مصالحه الذاتية وحدها، ومن ثم تفقد المعرفة أهم سماتها وهي الحيادة والموضوعية والصدق؟ وفي هذا الإطار يمكن أن نتفهم دلالة الدولة الفاشلة من خلال أنموذجين للمعرفة ابتدعهما الغرب، ليس لإثراء نطاق المعرفة ولصالح الإنسانية؛ وإنما لصالحه وحده، النموذج الأول هو علم الاستشراق، والنموذج الثاني علم الأنثروبولوجيا.

أ - علم الاستشراق:

يعرّف إدوارد سعيد المستشرق على النحو التالي: «كل مَنْ يقوم بتدريس الشرق، والكتابة عنه أو بحثه، ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصاً بعلم الإنسان، أم بعلم الاجتماع، أو مؤرخاً، أو فقيه لغة في جوانبه المحددة والعامّة على حد سواء هو مستشرق، وما يقوم هو أو هي بفعله استشراق. فالاستشراق أسلوبٌ من الفكر قائمٌ على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق وفي معظم الأحيان الغرب، وهكذا فقد تَقَبَّلَ جمهورٌ كبيرٌ جداً من الكُتَّاب - وبينهم شعراء وروائيون، وفلاسفة، ومنظرون وسياسيون، واقتصاديون وإداريون استعماريون - التمييز الأساسي بين الشرق والغرب، بوصفه نقطة انطلاق لسلسلة ممكنة الصياغة بين النظريات والملاحم والروايات والأوصاف الاجتماعية والأبعاد السياسية التي تتعلّق بالشرق وسكانه، عاداته وعقله وقدره وما إلى ذلك، وبوسع هذا الاستشراق أن يفسح مكاناً لـ «استوعب ايسخيلوس، ولنقل فكتور هوغو، ودانتي، وكارل ماركس»⁷، ولا يتوقف إدوارد سعيد عند هذا المعنى العام؛ بل سرعان ما يؤكد الدلالة الأيديولوجية للاستشراق بكل وضوح؛ ذلك أننا إذا اتخذنا من القرن الثامن عشر نقطة انطلاق؛ فإن الاستشراق يمكن أن يناقش بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، التعامل معه بإصدار تقريرات حوله وإجازة الآراء فيه وإقرارها بوصفه وتدريبه والاستقرار فيه وحكمه، وبإيجاز: الاستشراق أسلوب

7 - إدوارد سعيد: الاستشراق - المعرفة - السلطة - الإنشاء، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1961، ص 38.

غربي للسيطرة على الشرق وامتلاك السيادة عليه⁸.. ومن ثم فإن الدلالة الباطنية والجوهرية له تبدو في ارتباطه بمفهوم القوة والسلطة والهيمنة، وعلى ذلك فهو مفهوم جمعي ثقافي يحدّد هوية الأوروبيين كنقيض داخل أوروبا وخارجها على حد سواء. ومن ثم تصبح الهوية الأوروبية متفوقة بالمقارنة مع جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية. وبالإضافة إلى ذلك تسلط الأفكار الغربية عن الشرق، التي تعيد بدورها تأكيد التفوق الأوروبي على التخلف الشرقي. وهكذا فالاستشراق - على حدّ قول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون وكما وضعه إدوارد سعيد - يشكّل معرفةً بالشرق، تضع الشرق في قاعة التدريس، في محكمة في سجن، أو

إنّ الاستشراق - على حدّ قول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون وكما وضعه إدوارد سعيد - يشكّل معرفةً بالشرق، تضع الشرق في قاعة التدريس، في محكمة في سجن، أو في دليل موجز لأغراض التحليل المدقّق، والدراسة والتأديب أو الحكم.

في دليل موجز لأغراض التحليل المدقّق، والدراسة والتأديب أو الحكم. ومن هنا جوهر الاستشراق هو التمييز بين الفوقية الغربية والدونية الشرقية، وبذلك يصبح الاستشراق تدعيماً ودعامة لكل نظام استعماري يستهدف السيطرة والتسلط⁹، ومن هذا المنطلق كان التداخل بين الثقافة والاستعمار، وتحول نظام الاستشراق إلى نظام إمبريالي، يؤكّد التعارض بين الأنا والآخر، وحق غيره في قمع الآخر والسيطرة عليه من خلال معرفته والتعمق في كل ما يخصه¹⁰. على هذا النحو يمكن أن نتبيّن أن مفهوم الدولة الفاشلة - الدولة التي يحق لغيرها

السيطرة عليها والتدخل في شؤونها، وانتزاع إرادتها - تجد في نظام المعرفة الاستشراقية ما يدعم مشروعية تصنيفها وتحديد موقعها، فإذا كنا في حاجة إلى تأكيد مشروعية الدولة الفاشلة، أو في حاجة إلى تنظير وتعميق موضوعها فلنا في علم الاستشراق ما يؤسس لنا مصداقية نظرنا إليها.

8 - المرجع السابق، ص 40.

9 - مكسيم رودنسون: جاذبية الإسلام، ترجمة الياس مرقص، بيروت، دار التنوير، 1982، ص 10.

10 - إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، نقله إلى العربية كمال أبو ديب، دار الآداب - بيروت، 1997،

ص 297.

ب - الإنثروبولوجيا:

يقال عنها: إنها علم غربي أصيل، جاءت كنتيجة مباشرة للتطلع إلى نقيض تاريخي لوضعنا الذي لا يحتمل بتأثير غزو الكرة الأرضية وتلوثها فكرياً وتكنولوجياً وأخلاقياً، ومن ثم فإن مبعثها الخلاص والتحرر في اتجاه المجتمع البدائي بسكونه وجموده ورفضه لحركة التاريخ، لكن علم الأنثروبولوجيا من ناحية أخرى ارتبطت بداياته الأولى بالاستعمار، الذي استهدف دراسات مجتمعات تبدو متخلفة - في تحضرها وثقافتها - عن المجتمعات المتحضرة، ومن ثم فإن دراسة هذه المجتمعات - عاداتها وتقاليدها ودياناتها ومعارفها ولغاتها وفنونها - يسهل عليه غزوها واحتلالها والسيطرة عليها، شأنها في ذلك شأن علم الاستشراق، ومن هنا تبدو الأنثروبولوجيا - بما تقدمه من معلومات عن هذه المجتمعات - في خدمة التوسعات الاستعمارية، وما يرتبط بها من أهداف سياسية واقتصادية، ولعلنا لو اتجهنا إلى العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي شتراوس (1908 - 2009) - وهو من أقطاب النزعة البنيوية - لوجدناه - مع اهتمامه بدراسة المجتمعات البدائية، وإشادته البالغة بفنائلها وقيمها، وتبريره نفورها من الانخراط في صيرورة التاريخ - قد تبني من ناحية أخرى أيديولوجيا رأسمالية، تكتفي بتقديم المشاعر الرومانسية تجاه مجتمعات تحتاج لمن يساعدها ويعمل على تطويرها، بدلاً من استغلال مواردها واستنزافها، والإبقاء على أوضاعها على نحو ما هي عليه، من هنا جاءت المواقف السياسية التي اتخذها، فلم يتعرض لقضية التسابق النووي، أو قضية صفقات السلاح لدول العالم الثالث، وفي عام 1973 عندما أبدى رأيه في حرب فيتنام لم يجد أفدح من كارثة تخريب الأحراش الفيتنامية من القوات المتحاربة، وفي عام 1980 اعترف بأنه إذا كان قد سبق ودافع عن حق الدول في التحرر من الاستعمار؛ فإنه لم يعد على يقين من صحة دفاعه، خصوصاً وأن العديد من الدول التي تحررت لم تتحسن أحوالها، بل زادت مشكلاتها حدةً ومأساوية¹¹، وعلى الرغم من ذلك فقد شارك في اللجنة الدولية للثقافة

Sanche, De Grament There are no Superior Societies in: Claude Levi-Strauss. The Anthropologist - II as Hero. edited by E. Nelson and Tanya Hayes. Press Cambridge. 1970, pp.193-195.

(WCCD) في ديسمبر 1992، والتي أسفر عنها مؤتمر اليونسكو للسياسات الثقافية من أجل التنمية، الذي عُقد في عام 1998 بعاصمة السويد استكهولم، وكان حصيلة عمل اللجنة ذلك التقرير الذي أعدته بعنوان «تنوعنا البشري الخلاق»، بما انطوى عليه من احترام لكل ثقافات الشعوب، وإعلاء قيمة التسامح مع الغير تأكيداً لقيمته التعددية الخلاقة¹²، لكن إذا كان كلود ليفي شتراوس قد شارك في إعداد هذا التقرير - الذي يؤكد التعددية واحترام كل الثقافات - فإنه من - ناحية أخرى - تبني موقفاً عدائياً تجاه الإسلام، فالإسلام - على حدّ قوله - لا ينطلق من بدهاة الوحي بقدر ما ينطلق من العجز عن

**علم الأنثروبولوجيا
ارتبطت بداياته الأولى
بالاستعمار، الذي استهدف
دراسات مجتمعات تبدو
متخلفة - في تحضرها
وثقافتها - عن المجتمعات
المتحضرة، ومن ثم فإن
دراسة هذه المجتمعات
يسهل عليه غزوها
واحتلالها والسيطرة عليها.**

التواصل مع الغير، فالمسلم قد يلجأ إلى العنف بدلاً عن الحوار والإقناع؛ لاستقطاب وإرغام الغير لمشاركتة الحقائق التي يؤمن بها، وهو لا يستطيع أن يتحمّل وجود الآخر كأخر، وليس أمامه من وسيلة لحماية نفسه غير أن يعدّ الآخر لا وجود له، فهو العدم بعينه، ومن ثم لا وجود لمبدأ التسامح في الإسلام، وليس هذا فحسب؛ فالإسلام في رأيه أقل روحانية من بقية الأديان، ولا يحترم تلقائية الخيال الإنساني الخلاق وتجلياته في الإبداع الفني والجمالي¹³، وهنا تبدو

دراساته الأنثروبولوجية والبنوية على حقيقتها، فهو وإن كان قد دافع عن قيمة التسامح في تقرير التنوع البشري الخلاق، فقد تبني نزعة عدائية تجاه الإسلام تؤكد في مجملها تناقض المواقف، وعمق الارتباط بين الأنثروبولوجيا والدوافع الاستعمارية، التي تنطلق من التمييز العنصري بين الدول والثقافات، وهو تمييز يمكن أن يكون داعماً للتفرقة بين الدول الناجحة والدول الفاشلة.

12 - التنوع البشري الخلاق، المجلس الأعلى للثقافة، 27، ترجمة محمد يحيى، محمد لطفي فطيم، منى مؤنس، عبد الوهاب علوب، محمد أبو العطا نورا أمين، مراجعة لمعي المطيعي، 1997.

13 - Levi - Strauss, Claude. Tristes Tropiques. Translated by John and Doreen. Weighamn Janthen Cape, London pp.401-406.

المحور الثالث:

من مدلول الدول الفاشلة الملتبس والغامض - بما يتضمنه من نيات وأهداف ليست بريئة على طول الخط - إلى أنظمة معرفية لا تستهدف غير إحكام قبضتها على دول وشعوب تجد مشروعيتها ومصادقيتها في انتزاع إرادات هذه الدول أو الشعوب، من منطلق الأخذ بيدها وإصلاح أحوالها المتردية، إلى عالم الأيديولوجيا بكل ما تحمله من مدلول، قد يبدو في مظهره العام دفاعاً عن القيم والمبادئ الإنسانية التي لا تميّز بين دولة وأخرى أو شعب وآخر؛ لكنه في حقيقة الأمر يلبس مسوح المبادئ الخلقية وهو أبعد ما يكون عنها في الواقع، ولنا مثلاً في فلسفة ماركس، التي أدانت اتجاه البشر إلى تأسيس أيديولوجيات تظهر مصالحهم الطبقيّة بمظهر الرضا والقبول، وهي في حقيقة الأمر تخفي الحقائق الجوهرية للنضال الطبقي الاقتصادي وراء عبارات رنانة ذات معانٍ مجرّدة تدعي الحياد، على الرغم من أن ماركس نفسه تجاهل هذا الحياد، ولم يستطع أن يتحرر من سحر الأيديولوجيا، ويكفي قول ماركس في الدفاع عن استعمار إنجلترا للهند: «إن على إنجلترا أن تحقق في الهند رسالة مزدوجة: الأولى تدميرية، والثانية إحيائية تجديدية، إفناء المجتمع الآسيوي، وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربي في آسيا»، ويمضي ماركس فيقول: «إن بريطانيا حتى بتدميرها لآسيا كانت تجعل خُلق ثورة اجتماعية حقيقية فيها أمراً ممكناً»¹⁴.

وهكذا تصبح الأيديولوجيا القناع الخفي المستتر، الذي تتخفى وراءه كل أيديولوجيا تبغي التدخل في شؤون الغير، ويصبح من ثم مصطلح الدول الفاشلة أو الدول المنهارة أو الدول المارقة - أيّاً كان الوصف - ذريعة للتدخل وإصلاح أحوالها المتردية، وهنا يأتي مفهوم المركزية الأوروبية أو الغربية تدعيماً وتكريساً لكل مصطلح جديد، ولكل نموذج معرفي «استشراق أو أنثروبولوجيا»، فالغرب هو وحده المشرّع، وصاحب الحق الأوحّد في صياغة وتشكيل وإصلاح خريطة العالم على نحو يحقّق مصالحه بالدرجة الأولى، ويفرض اللغة والمصطلحات الجديدة الكفيلة بالتعبير عن أفكار جديدة تناسب

14 - إدوارد سعيد: الاستشراق، ص 170 - 171.

المواقف الجديد، على نحو ما أبان تشومسكي، ومن ثم يصبح تاريخ العالم من حق الغرب وحده على نحو ما فصله بيتر جران على النحو التالي:

- 1 - مفهوم مركز القوة الواحد، الذي يتحدد جغرافياً بأوروبا.
- 2 - إن أوروبا أو الغرب تتميز بشدة عن باقي العالم أو عن العالم الثالث.
- 3 - إن باقي العالم إما أنه غريب - أي مختلف أساساً عن الغرب - أو أنه مماثل للغرب، مع مراعاة الفروق الشاسعة في مستوى النمو بينها.
- 4 - إن إحدى السمات الرئيسة للعالم الثالث هي ما يمتلكه من عصور

ذهبية، وإن بعض هذه العصور كان مصدر إلهام لعدد من حركات الإحياء، التي تبحث الشعوب التقليدية من خلالها عن هوية جديدة لها داخل العالم الحديث.

5 - إن كل الأحداث التي تقع في العالم الثالث - أو معظمها على أقل تقدير - تقع نتيجة لأفعال يقوم بها الغرب.

6 - إن الأحداث أو التغيرات تقع من خلال العلاقات المتبادلة بين النخب، فالعلاقات هي العلاقات الأفقية ذات الطابع الدولي، وليست هي العلاقات الرأسية ذات الطابع المحلي.

7 - إن تاريخ العالم إما أن يقبل الحاضر قبولاً مطلقاً، أو يرفضه رفضاً مطلقاً.

8 - وأخيراً فتاريخ العالم - كما يتبدى في النموذج السائد - دفاع عن الوضع الراهن، ولما كان ذلك في صالح العناصر المهيمنة فقد عملت على إعادة إنتاجه¹⁵.

15 - بيتر جران: ما بعد المركزية الأوروبية، ترجمة عاطف أحمد، إبراهيم فتحي، محمود ماجد، إشراف ومراجعة رؤوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، 1998، ص 20.

تصبح الأيديولوجيا
القناع الخفي المستتر،
الذي تتخفى وراءه كل
أيديولوجيا تبغي التدخل
في شؤون الغير، ويصبح
من ثم مصطلح الدول
الفاشلة أو الدول المنهارة
أو الدول المارقة - أيًا كان
الوصف - ذريعة للتدخل
وإصلاح أحوالها المتردية.



ولعلنا الآن نتساءل: هل نتجاهل مفهوم الدول الفاشلة كلية وننظر إليه بعيداً عنا؟ ونتجاهل التقارير السنوية التي اعتادت تضمين بعض الدول العربية ضمن هذه التقارير؟ من منطلق انعدام الحيدة والموضوعية في تناول ما يسمى الدول الفاشلة، ومن منطلق عدم مشاركتنا في إعداد هذه التقارير التي يقوم الغرب بصياغتها، ويصنف بمقتضاها الدول بما يحقق مصالحه وحدها، أعتقد بأن المواجهة الموضوعية تتطلب منا تنفيذ هذه التقارير، وكشف ما تنطوي عليه من توجهات ورؤى فوقية، ونظرات استشراقية استعمارية، وأيديولوجيات مستترة ولغة ومصطلحات غامضة ملتبسة، أعتقد أنه ما من دولة في العالم بمقدورها أن تتجنبّ الفشل في بعض مظاهرها، فالفشل ملازم للنجاح، بل يمكن أن يكون الفشل دافعاً للنجاح، وعظماء الإنسانية ومبدعوها من العلماء والفنانين والساسة ما كان طريقهم مليئاً بالورود بقدر ما كان مليئاً بالأشواك، وتعرّض البعض للفشل لا يعني أن نوحّد ونطابق بين هويتهم.

وإذا كان علينا تغيير الصورة السلبية عن مجتمعاتنا العربية الإسلامية؛ فإن تغيير هذه الصورة يتطلب مزيداً من الوعي بواقعنا، ومزيداً من الوعي بالعالم الذي نعيش فيه بكل متغيراته العلمية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية، ومزيداً من الوعي بقيمة العمل وضرورته، ومزيداً من الوعي بقيمة التعليم والبحث العلمي، ومزيداً من الوعي بقدرتنا على مواجهة التحديات والثقة في أنفسنا، ومزيداً من الوعي بتراثنا وتاريخنا، ومزيداً من الوعي بخطاب ديني جديد، يوحد بيننا ولا يفرق، يدعم خطانا ويدفعنا إلى الأمام، يعطينا الأمل والثقة في إمكانياتنا وقدراتنا، يؤهلنا للمشاركة في صياغة عالم جديد للإنسانية يقوم على التعارف والتفاهم والمشاركة.